المختار من كنوز السنة

عن (أَبِي هُرَيْرَةَ) - رضي الله عنه - أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا أحسن أحدكم إسلامه فكل حسنة يعملها تُكتب له بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، وكل سيئة يعملها تُكتب بمثلها حتى يلقى الله تعالى - أخرجه الشيخان»[1]

أ.د/ محمد عبد الله دراز(*)

ونعود إلى شرح الحديث فنقول: إنه لا يتكلم عن أصل الاعتقاد الباطني حتى يلزم أن نئول كلمة التوحيد فيه بمجموع الشهادتين أو الشهادات التي لا يصح الإيمان إلا بها، وإنما يُراد من هذا الحديث الكريم التنبيه إلى إحراز فضيلة عملية وأمر زائد على أصل الاعتقاد، ذلك الأمر هو أن يكون آخر عمل الإنسان في حياته ذكر الله تعالى والإقرار له بالربوبية المطلقة ولغيره بالعجز المطلق.

وقد رغب النبي ﷺ في ذكر هذه الشهادة قبل الموت فجعل جزاءها دخول الجنة. وهذا لا إشكال فيه، فلا يُعد من تلك الظواهر التي تميل كل الميل إلى طرف الرجاء، وذلك لأن هذا الذاكر إن كان مؤمنًا من قبلُ كان هذا الذكر منه توبةً واستغفارًا، فيكون مكفرًا لسيئاته ورافعًا لدرجاته، كما قال تعالى في شأن «يونس» -عليه السلام-:

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧، ٨٨)

(*) أستاذ التفسير بكلية أصول الدين - حصل على الدكتوراه من جامعة (السوربون) عام ١٩٤٧، نال عضوية كبار العلماء عام ١٩٤٩م. توفي عام ١٩٥٨م.

(١) صحيح البخاري: ١ / ١٧ - كتاب الإيمان - باب حسن إسلام المرء وصحيح مسلم: ١ / ١١٨ - (١) - كتاب الإيمان - (٥٩) -: باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وإذا هم بسيئة لم تكتب: الحديث رقم: (٢٠٥). وانظر: تيسير الوصول: ١ / ١١.

فيكون من أهل الجنة حقًا[٢]. وإن كان في الأصل غير مؤمنٍ فتدارك أمره قبل الموت ولم يمت إلا وهو مسلم بأن شهد بما يدخله في الإسلام - من شهادة واحدة أو أكثر على حسب حاله مع سلامة العقيدة طبعًا؛ لأن هذا مفروغ منه - كان ذلك إعلانًا منه للتوبة عما سلف له من الشرك فيكفر الله عنه كل سيئة كان أزلفها، ويكتب له كل حسنة كان أزلفها، فيكون أيضًا من أهل الجنة حقًا.

وليس المراد في الحديث من تعليق هذا الجزاء على ذلك الشرط أن حكم الله بدخول الجنة موقوف على النطق بهذه الكلمة، فإنه تعالى يحكم بما يعلمه من دين العبد وبما يجريه على قلبه تكلم به أو لم يتكلم. وإنما المراد أن مَن قال هذه الكلمة قبل موته نشهد له نحن بأنه مات مختومًا له بالإيمان تائبًا عن الذنب ونحكم له بما يتبع ذلك من دخول الجنة؛ لأن ذكره لهذه الشهادة في تلك الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي الفاجر أمارة قوية على صدقه وإخلاصه وأنه لا شائبة في قوله للرياء والسمعة. فيكون حكمنا له بدخول الجنة مبنيًا على هذه العلامة الجلية وحسابه إلى الله.

وكأني بكم تسألون هاهنا سؤالين.

السؤال الأول: كيف تكون الشهادة عند الموت نافعة يدخل بها الكافر في الإسلام فيغفر له بها ما قد سلف، ويتوب بها المسيء عن المعصية فتمحى بها خطاياه، والله تعالى يقول: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ (النساء: ١٨)

ويقول: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ (الأنعام: ١٥٨)

ولمّا قال فرعون حين أدركه الغرق:

﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٩٠)

قال الله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٩١)

السؤال الثاني: سلمنا أن التوبة حينئذ نافعة مقبولة، وأنها تمحو الذنب كله، دقه وجله، من الشرك فما دونه، لكنّا قد قررنا غير مرة أن الأحكام الأخروية منوطة في أصول الدين بالأمور القلبية وبسلامة العقيدة تلفظنا أو لم نتلفظ، ومن المقرر أيضًا أن حقيقة التوبة إنما هي ندمٌ على الماضي وعزمٌ على عدم الرجوع إليه في الاستقبال وإقلاعٌ عنه في الحال إن كان متلبسًا به، وهذه الأركان كلها لا مدخل فيها للنطق باللسان، ومن المقرر أيضًا أن الذكر كما يكون باللسان يكون بالقلب، وذِكر الله على قلب المؤمن سمى أو لم يسم. فماذا يقصد الشارع من التوصية بهذا الذكر اللفظي؟

(٢) لأنه تقدم أن التوبة ماحية للذنوب السابقة عند جميع الفرق الإسلامية. نعم إن كان في هذه الذنوب تبعات من حقوق العباد لم تكن التوبة منها مجرد الندم والاستغفار، بل لا بد عند الأكثر من رد تلك الحقوق إلى أصحابها أو تحللها منهم ومسامحتهم له فيها؛ لأن هذا من الإقلاع عن الذنب الذي هو ركن من أركان التوبة فإن لم يفعل ذلك فهو في خطر المشيئة الإلهية، فيكون معنى دخوله الجنة أنها مآله ولو بعد أن يستوفي عقوبته بأخذهم من حسناته أو أخذه من سيئاتهم، إلا أن يرضيهم الله عنه بفضله.

وأيا ما كان فليس في الحديث متكأ لأولئك الكسالى عن طاعة الله المجترئين على معصية الله؛ لأنه علق هذا الجزاء على شرط مجهول وأمر غير مضمون وهو الذكر والتوبة عند الموت. وقد يفاجئ القدر المحتوم قبل أن يأخذ المرء عدته. ثم ما أبعد هذا الذكر والتوبة عمن كان في متسع حياته من القاسية قلوبهم عن ذكر الله. نعم قد يسبق الكتاب على مَن كان يعمل بعمل أهل النار فيعمل بعمل أهل الجنة، ولكن هذه حالة شاذة. والأصل الأغلب أن الفاتحة عنوان الخاتمة، وأن ذكر الله تعالى إنما يسهل حضوره في قلب الذاكرين. نستغفر الله ونتوب إليه، ونسأله حسن الختام

فالجواب على السؤال الأول أن حضور الموت الذي لا تنفع معه توبة ولا عمل هو بلوغ تلك الحال الاضطرارية التي يرتفع معها التكليف، وهي حال النزع والغرغرة. فهذا هو محمل الآيات. أما محمل الأحاديث فهو ما قبل بلوغ هذا الحد، وهو حضور أماراته ومقدماته. وهذا تُقبل فيه التوبة عن الشرك، بله المعصية. روى الشيخان عن سعيد بن المسيب -رضي الله عنه- أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله ﷺ يعوده، فقال له: يا عم! قُل: لا إله إلا الله، كلمةً أشهد لك بها عند الله[٣]. وروى (البخاري) في الجنائز عن أنس -رضي الله عنه- أنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ، فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: «أَسلِم» فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم. فأسلم. فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار»[٤].

والجواب على السؤال الثاني أن كل ما ورد فيه من القواعد مُسَلَّمٌ به. أما الفوائد التي يرمي إليها الشارع من ضم الذكر والتوبة اللسانية إلى الذكر والتوبة القلبية فنذكر منها فائدتين:

(الفائدة الأولى): أن الذكر بالقلب عمل واحد، والذكر بالقلب واللسان عملان اثنان فهو أعظم درجةً عند الله. ثم إن في عمل اللسان محافظةً على عمل القلب؛ لأن القلب قد تأخذه سِنةٌ من الغفلة فيوقظه القولُ وينبهه، وقد يحوم حوله هاجس من الهواجس الشيطانية فيطارده هذا الذكر ويحل محله، ومن هنا تعرفون الحكمة في أن أكثر العبادات الدينية وُضِعت على وجه جامع بين العمل البدني والنية القلبية. ذلك أن القلب كثيرًا ما يتقلب، وينتقل به الخيال سابحًا من معنى إلى معنى، فإذا ما جعل للمعنى الذي يتوجه إليه القلب أداة أخرى من القول أو الفعل كان ذلك قيدًا يحدد مجال الخواطر التي تجول فيه، وعقالاً يمسكه إلى حد ما عند الأمر المقصود. وقد قال علماء النفس: إن الشيء الواحد إذا توارد عليه نوعان من الشعور كالبصر والذوق مثلاً يكون أقوى منه إذا شعر به من جهة واحدة، وكلما اشتركت فيه حواس أكثر كان أقوى وأثبت. فهذا من ذاك.

(الفائدة الثانية): أن في إعلان ذكر الله تعالى عند الموت تبشيرًا للحاضرين بثبات أخيهم على الإيمان، ليكونوا شهداء له عند الله بذلك، فإن مَن أثنى عليه المؤمنون خيرًا رُجي له الخير. كما ورد في الصحيحين أنه مرّت جنازة فأثنوا عليها خيرًا، فقال ﷺ: «وجبت». ومرت جنازة أخرى فأثنوا عليها شرًا فقال ﷺ: «وجبت» فقال عمر -رضي الله عنه-: فِداك أبي وأمي، ما وجبت؟ فقال ﷺ: «هذا أثنيتم عليه خيرًا فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرًا فوجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض»[٥]. وبالقياس على هذا تعرفون حكمةً أخرى لهذا القسم الظاهري من الأعمال الدينية، وذلك أن الشارع الحكيم يقصد من إظهار بعض الأعمال أن تكون معرِّفة بحال صاحبها لينزل كل

(٣) «صحيح مسلم: ١ / ٥٤ - (١) -: كتاب الإيمان (٩) -: باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت - الحديث رقم: (٣٩)». و «صحيح البخاري: ٢ / ١١٩ - الجنائز - باب: إذا قال المشرك عند الموت: «لا إله إلا الله»».

(٤) «صحيح البخارى: ٢ / ١١٨ - الجنائز: باب إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه وهل يُعرض عليه الإسلام».

(٥) «صحيح مسلم ٢ / ٦٥٥ - ١١ - كتاب الجنائز - ٢٠ - باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الموتى - الحديث رقم: ٦٠ / ٩٤٩» و «سنن الترمذى ٤ / ١٤ - الجنائز - (٦٣): باب ما جاء فى الثناء الحسن على الميت - الحديث رقم: ١٠٥٨».

امرئ منزلته ويولي من الأمور ما يستحقه بقدر ما يعرف فيه من الخير والنفع فتُقبل شهادة الصالح وإمامته، ويُؤتمن على دماء الناس وأموالهم وأعراضهم، ويسأل عما يعلمه، ويقتدي به فيما يعمله. إلى غير ذلك من المصالح العامة التي لا تكون إلا بإظهار شيء من أعمال البر. روى الترمذي في باب عمل السر من أبواب الزهد بإسناد حسن، أن رجلاً قال: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيُسرُّه، فإذا اطلع عليه أعجبه ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «له أجران. أجر السر، وأجر العلانية»[٦] قال الترمذي: وقد فسر بعض أهل العلم هذا الحديث فقال: إذا اطلع عليه فأعجبه فإنما معناه أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير لقول النبي ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض» فيعجبه ثناء الناس لهذا.. فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ليُكرَم على ذلك ويُعظَّم فهذا رياء. وقال بعض أهل العلم: إذا اطلع عليه فأعجبه رجاءَ أن يُعمل بعمله فيكون له مثل أجورهم، فهذا له مذهب أيضًا اهـ.

تبيّن بهذا كله فضل كلمة الشهادة عند الموت، فينبغي للعاقل أن يحرص على ذكرها إذا احتضر. فإن نسي هو فينبغي لمن شهد أن يذكّره بها بأن يقولها أمامه[٧] ليتأسى بالذاكر. وهذا هو التلقين المندوب إليه شرعًا باتفاق الأئمة الأربعة، وهو من التعاون على البر المأمور به في القرآن، وورد النص عليه بخصوصه في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وأبو داود وغيرهما: «لقنوا موتاكم[٨] قول لا إله إلا الله».

ولا يُشترط اتصال الموت بهذه الكلمة، بل لو سكت بعدها ولم يتكلم بكلام آخر كان الحكم كذلك؛ لأنه ﷺ قال: «مَن كان آخر كلامه» ولم يقل: «مَن كان آخر حياته قول لا إله إلا الله».

قال الترمذي في أبواب الجنائز: «وقد كان يُستحب أن يُلقن المريض عند الموت قول لا إله إلا الله. وقال بعض أهل العلم: إذا قال ذلك مَرة فلا ينبغي أن يُلقن ولا يكثر عليه، وروي عن عبد الله بن المبارك أنه لما حضرته الوفاة جعل رجل يلقنه: «لا إله إلا الله» وأكثر عليه فقال له عبد الله: «إذا قلت ذلك مرة فأنا على ذلك ما لم أتكلم» أخرجه أبو داود في باب التلقين من كتاب الجنائز.

---

(٦) سنن الترمذى: ٧/ ١١٥ - (٣٧): كتاب الزهد - (٤٩) - باب عمل السر - الحديث رقم: (٢٣٨٥).
(٧) ولا يقول له: «قل كذا» لأنه قد يمنعه مانع من النطق فى الحال فيساء الظن به.
(٨) أى من حضرهم الموت. أما تلقين الميت بعد الموت فمختلف فيه، وهو عند الجمهور من محدثات الأمور.